

المقاومة الإسلامية للاستعمار الفرنسي في السنغال ١٨٥٤-١٨٦٥م

الحركة العمرية نموذجاً



عبدالله عيسى

باحث سوري، متخصص بالدارسات الإفريقية

٢٠١٥/٠٨/٢٧



المقدمة

إنَّ دراسة موضوع **موقف القوى الإسلامية من الاستعمار الفرنسي في السنغال (١٨٥٤. ١٨٦٥م)**، تبدو بالغة الأهمية نظراً لمجموعة من الاعتبارات التي يمكن إجمالها فيما يلي:

* خصوصية الحضور الفرنسي في هذا البلد، والذي تجلى في كون السنغال كان بمثابة حقل جُربت فيه مختلف أوجه السياسة الاستعمارية، حيث تمكنت القيادة الفرنسية من مراكمة قدر كبير من المعرفة الميدانية، استطاعت توظيفها فيما بعد في بلدان إفريقية أخرى.
* كون سنة ١٨٥٤م تعتبر منعطفاً تاريخياً خطيراً؛ إذ طبعتها نزعة التوسع العسكري، التي ستفضي ـ في نهاية المطاف ـ إلى فقدان السنغال استقلاله، مكرسة بذلك تحول الحضور الفرنسي في المنطقة من حضور تجاري إلى احتلال عسكري وسياسي.
* إنَّ سياسة الغزو التي دشنها الوالي فيديرب (Faidherbe) ابتداء من سنة ١٨٥٤م، لم تكن في واقع الأمر من صنع ظرفية النصف الثاني من القرن ١٩م؛ بل هي نتيجة لإخفاق تجارب سياسية عديدة كانت بمثابة محك للعقلية الاستعمارية.
* كما شكَّل الإسلام ـ وخاصة حركة الحاج عمر الجهادية ـ عقبة حقيقية في وجه الأطماع الفرنسية بالسنغال، وخطراً كبيراً على مستقبل وجودها بالمنطقة ككل. ومما يزكي هذا التخوف من قبل الفرنسيين، الانتصارات المتلاحقة، وسقوط الأقاليم، الواحد بعد الآخر، تحت نفوذ هذه الحركة الفتية، الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى استعمال كل ما في وسعها لاحتواء الحاج عمر ودولته، بالوسائل السلمية من الوعد والوعيد أولا، ثم باستعمال القوة، وبعد وفاة هذا الأخير، تمكنت فرنسا من الإجهاز على دولة الحاج عمر بنهج سياسة التفرقة بين الأمراء من جهة، واستعمال لغة الحديد والنار لدعم المناهضين لها من جهة ثانية، مما مكنها من فرض استعمارها على السنغال بشكل نهائي مع نهاية القرن١٩م.

ودراسة الباحث للحقبة الزمنية الممتدة من ١٨٥٤. ١٨٦٥م، يبررها في نظره الأهمية الخاصة التي تحظى بها هذه الحقبة في تاريخ السنغال الحديث.

فعلى المستوى الدولي: اتسمت هذه الحقبة بتغيرات اجتماعية وسياسية كبرى، تجلت على الخصوص في تركيز النظام الإمبراطوري، الذي أفرز مداً استعمارياً كبيراً غطى بتأثيراته معظم أقطار القارة الإفريقية، بما في ذلك السنغال، الذي استمر خلال هذه الفترة من تاريخه متعلقاً ببناياته الاجتماعية والسياسية التقليدية، والتي كانت قد اهتزت بعمق نتيجة احتكاكها بمعطيات ومؤشرات حضارة هذه الحقبة.

وعلى المستوى المحلي في السنغال، فتعتبر هذه الحقبة منعطفاً تاريخياً مهماً في حياته؛ إذ حتمت عليه الظرفية التاريخية أن يواجه فيها إحدى أكبر القوى الاستعمارية في ذلك القرن، بعد أن عبرت الممالك السنغالية عن رفضها لأي شكل من أشكال السيادة الفرنسية على مجالها الترابي حتى عام ١٨٥٤م.

أما **نهاية الفترة المدروسة 1865**م فلها أكثر من دلالة، فأهم حدث على المستوى المحلي هو إخماد نار المقاومة، المتمثلة بوفاة زعيمها الحاج عمر الفوتي، ونهاية فترة حكم الوالي فيديرب، بعد أن أرسى قواعد الوجود الفرنسي ليس فقط في السنغال، بل في معظم أرجاء إفريقيا الغربية .

وأما فيما يتعلق **بدواعي اختياري لهذا الموضوع**، والذي أرجحه إلى مجموعة من الاعتبارات، يمكن تلخيصها بما يلي:

- إنَّ الاشتغال بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء يندرج ضمن اهتمامات الباحث بتاريخ هذه القارة، ويدخل أيضاً ضمن تخصصي من بعد الإجازة.
- تحامل بعض الدارسات الأجنبية على تاريخ السنغال، ومحاولة قلب الحقائق، حيث جاءت بعض استنتاجاتها مجانبة للواقع التاريخي.
  - أمام هذه الأحكام القيمية، وجد الباحث نفسه - وبدافع علمي- يبحث في متون الكتب عن حقيقة وواقع الأمر، ليس فقط فيما يخص وجود الإسلام بالسنغال، بل كل ما يتعلق بموقف الإسلام تجاه الوافد الجديد. وإظهار تجليات العلاقة بين الممالك السنغالية وفرنسا.
- خصوصية الحضور الفرنسي في السنغال، فكانت السنغال أولى المستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا.
- الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا الحديث، ولملمة حلقاته المفقودة.

بناء على ما تقدم، يسعى الباحث في هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على هذه الحقبة من تاريخ السنغال، بغرض إثراء وإخصاب الدرس العربي المتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء والعمل على إغناء المكتبة العربية في هذا الشأن.

أما **إشكالية الدراسة** أو سؤال الأسئلة الذي يطرحه موضوع هذه الدراسة فهو: كيف تمكنت فرنسا من فرض سيطرتها على السنغال؟ وهل شكل هذا الاحتلال خطراً حقيقياً على الإسلام، وبالتالي ما موقف السلطة الإسلامية منه؟

ومقاربة الباحث لهذه الإشكالية، تستدعي معالجة القضايا التالية:.

- تتبع بدايات الحضور الأوروبي في المنطقة.
- معرفة تجليات السياسة التوسعية الفرنسية في السنغال خلال القرن التاسع عشر.
- الوقوف عند شخصية فيديرب باعتباره واضع أسس السياسة الاستعمارية في السنغال، ومعرفة مشروعه الاستعماري، الذي سيفضي في نهاية المطاف إلى تكوين مستعمرة السنغال.

أما عن **المناهج** التي تم التسلح بها في دراسة البحث؛ فقد تم التعويل على المنهج الاستقرائي؛ فاتجه الباحث إلى القراءات المكثفة لكم لا بأس به من المصادر، والمراجع، ومن ثم في مرحلة لاحقة تمّ استنباط وتفكيك النصوص المصدرية التي تمّ بناء الشكل العام للدراسة عليها. وكذلك عول الباحث على المنهج المقارن، وذلك بعدم الاكتفاء بالتاريخ الوصفي السردي، الأمر الذي استلزم وجود عدة قضايا

مشتركة، ومختلفة بين الأطراف المقارن بينها، من خلال السؤال والإجابة، ووصف التغيرات والأحداث ليتم بعد ذلك استخلاص النتائج العامة.

وأخيراً تمّ الجمع بين تلك المناهج ضمن خلاصة علمية تهمُ الموضوع بشكل خاص، حيث تمت إعادة تركيب المعلومات بطريقة منهجية؛ عالجت أسباب الظاهرة، ودوافعها، والآثار الناجمة عنها، ورغم ذلك فإنّ الباحث لا يدعي القدرة على الانفتاح على تلك الطفرة المنهجية الواسعة في مجال دراسة العلوم الإنسانية، ومحاولة توظيفها في إنجاز الدراسة، وربما كان ذلك بسبب الموضوع.

وأخيراً نرجو من الله تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع بمثابة لبنة جديدة في حقل التاريخ الإفريقي، وإسهامًا متواضعًا في إعادة كتابة تاريخ السنغال. ولا يفوتني أن أعتذر عن أي نقص أو خطأ ، رغم محاولة الباحث الاجتهاد، والإلمام بكافة عناصره، فإنْ أصبنا فمن الله وحده، وإنْ أخطأنا فمن أنفسنا.

المبحث الأول: التدافع الأوروبي على الشواطئ السنغالية قبل القرن ١٩م

بعد مجهودات جبارة، تمكن البرتغاليون . في إطار كشوفاتهم الجغرافية . من الوصول إلى مصبَّيْ نهري السنغال وغامبيا، وذلك قبل عام ١٤٦٠.[١]

وباعتبار أهداف الكشوفات، المتمثلة في الحصول على الذهب والرقيق الإفريقي والعاج فضلاً عن نشر الديانة المسيحية، فقد كان طبيعياً أنْ يعمل البرتغاليون على إنشاء عدد من القلاع والحصون لتنظيم التجارة على طول السواحل السنغالية المكتشفة.[٢]

ولم ينتظر العرش الإسباني طويلاً لكي يلتحق بالبرتغاليين في سعيهم لتحقيق نفس الغايات والأهداف.

وخلال القرن ١٦م، تزايد الاهتمام الإيبيري بالمنطقة الواقعة ما بين نهري السنغال وغامبيا (السنغامبيا)،[٣] وازداد ضغطهم للحصول على الذهب والرقيق، خاصة بعد أن دخلت هذه المواد في ما يُعرف بالرواج الثلاثي ما بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا.[٤]

---

[١]. وهي السنة التي توافق وفاة الأمير البرتغالي هنري الملاح، الذي كان له دور رائد في تشجيع عملية الكشوفات الجغرافية.

[٢]. الشكري، أحمد. ٢٠٠٢. "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، ضمن أعمال الندوة الدولية المنعقدة في داكار. السنغال (١٤. ١٩ دجنبر ١٩٩٨)، بمناسبة مرور مائتي سنة على ميلاد الحاج عمر الفوتي تال، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص. ٤٦.

[٣]. وبغض النظر عما تثيره مسألة تعيين الحدود من صعوبات قبل القرن ١٨م، يمكننا القول: إنَّ **فضاء السنغامبيا** يشمل جُلّ المناطق الواقعة ما بين نهري السنغال وغامبيا؛ من منبعهما بأعالي فوتاجالون إلى مصبيهما في المحيط الأطلسي. بمسافة تُقدر بـ ١٣٥٠ كم² من الغرب إلى الشرق، و ٩٠٠ كم² من الشمال إلى الجنوب. ويرجع الفضل في استعمال هذا الاصطلاح وترسيخه في حقل الدراسات الإفريقية للبحاثة الغيني الأصل بُبكر باري (B. Barry)، الذي سعى في معظم دراساته إلى توظيفه والترويج له.

- Barry, (B). 1998. La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale. Paris, éd. L'Harmattan, p.38.

[٤]. الشكري، أحمد."جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. ٤٧.

وشكلت منطقة السنغال خلال الفترة المتراوحة ما بين منتصف القرن ١٥م ومطلع القرن ١٧م، أهم مصدر للعبيد. الشيء الذي كان له أثر فظيع على البنية السكانية للمنطقة، وأسهم هذا العامل بدوره في خلق وضعية سياسية واجتماعية ونفسية صعبة للغاية.(٥)

وقد يحلو لبعض الدارسين بهذا الصدد، أنْ يدافعوا عن الرأي القائل بأنَّ تجارة الرقيق الأوروبية، ما هي إلا امتداد لتجارة الرقيق الإسلامية عبر القوافل الصحراوية. بيد أنَّ هذه الفكرة الملغومة لا تستند على أي أساس من الصحة و لا تؤيدها الوثائق المتوفرة سواء أكانت عربية أم أوروبية.(٦) والأكيد كذلك، أنه بعد انهيار الامبراطوريات القروسطية، تفتت الوحدة السياسية لبلاد السنغال؛ حيث برزت ممالك صغيرة كما هو الشأن في كايور، وباول، ووالو، وغيرها من المناطق. وكانت هذه المناطق خاضعة لزعماء محليين، غالبا ما كانوا يتصارعون فيما بينهم لتوسيع مجال نفوذهم، وقد امتد هذا الصراع ليشمل الإمارات البيضانية (٧) على الضفة اليمنى من نهر السنغال.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل كانوا يتنافسون في خدمة طلبات التجارة الأطلسية، المتمثلة أساساً في توفير الرقيق للأساطيل الأوروبية. ولتحقيق هذه الغاية، اجتهد الزعماء في خلق فرق من القناصة، زرعت الرعب بين الأهالي، ودفعت بالكثير منهم إلى الهرب نحو المناطق الأكثر أمناً.(٨)

ومع بداية القرن ١٧م، دخلت كل من فرنسا وإنكلترا حلبة الصراع في السنغال، وكانت هولندا قد سبقتهما بعدة عقود من الزمن. غير أنَّ قوة فرنسا وإنكلترا، جعلتهما ينفردان بحضور متميز، تدعّم من خلال إنشاء عدد من الحصون، مثل حصن سان جيمس عند مصب نهر غامبيا، وحصن سانت جيمس عند مصب نهر السنغال. وبموازاة مع ذلك، تراجع الحضور الإيبيري واندفع نحو الجنوب، بينما تمَّ اقصاء هولندا من حلبة الصراع.

ولتدعيم موقعهما على الساحل السنغالي، تمَّ خلق عدد من المؤسسات التجارية، تمتعت بامتيازات مهمة، نخص بالذكر منها، احتكار التجارة مع المنطقة. وبذلك ازداد وتنامى التنافس التجاري بين

---

(٥). السعدي، عبد الرحمن. ١٩٨١. تاريخ السودان، ترجمة أوكتاف، هوداس، ميزونوف ـ باريس، ص.٧٧.

(6)- Raymond ,(M). 1975 . Tableau Géographique du l'Ouest Africain au Moyen Age : d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie. Postbus: Swets Publishing Service, p. 327.

(٧) ـ إنَّ إطلاق تسمية **البيضان** أو البياضين على سكان هذا الجزء من الصحراء الإفريقية الكبرى يعود إلى الرحالين العرب في القرون الوسطى، وذلك لتمييز هؤلاء السكان ذوي البشرى السمراء (الضاربة أحياناً إلى البياض) عن بقية سكان المنطقة الزنوج ذوي البشرة السوداء (السود). وقد احتفظ البيضان لأنفسهم على مرّ الزمن بهذه التسمية حتى أصبحت علماً على البلاد تماماً كصحراويتها. وما تزال تسمية البيضان دالة إلى يوم الناس هذا على الموريتانيين العرب (غير الزنوج) مع شيوع كتابتها "بيظان" بدل بيضان، أي بإبدال حرف الضاد ظاء. راجع: بن محمذن، محمدو. ٢٠٠١. المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية). بن محمذن، محمدو. ط١، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ص. ١٧.

(8)- Ca Da Mosto (A .De.). 1895, Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique., Paris, publié par M. Charles Schefer,p. 317.

فرنسا وإنكلترا، الشيء الذي أسهم في خلق وبناء عدد من الحصون الأخرى، مثل حصن سانت جوزيف عام ١٧٠٠م.[٩]

على أنَّ الحروب النابليونية في أوروبا، خاصة بعد هزيمة واترلو، كان لها وقع كبير على مكانة فرنسا في المنطقة، الشيء الذي حرمها لبضع سنين من ممارسة نفوذها في المراكز والحصون التي أنشأتها على الساحل الأطلسي الإفريقي. ولم تتمكن فرنسا من استعادة نفوذها إلا بعد توقيع معاهدة باريس عام ١٨١٥م. لتبدأ بذلك صفحة جديدة من صفحات تاريخ الاستعمار الفرنسي بالمنطقة.

[٩]. الشكري، أحمد. "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. ٤٩.



المبحث الثاني: دواعي وتجليات السياسة التوسعية الفرنسية في السنغال خلال القرن التاسع عشر

شكلت إفريقيا المكان المفضل لسياسة فرنسا التوسعية التي جاءت لتعويض خسارة مستعمراتها الزراعية في العالم الجديد، وإفلاس صناعاتها النسيجية في الهند، وفشلها في الأخذ بنصيب من تركة الرجل المريض. وجاء تردِّي الأوضاع الاقتصادية والسياسية في فرنسا الثورة والإمبراطورية ليعطي دفعاً لنزعتها التوسعية.

ويكفي أن نتذكر أن التفكير في تحويل مستعمرة السنغال من مركز تجاري إلى مستعمرة زراعية قد جاء على أثر اندلاع الانتفاضات في سان دومينيك سنة ١٧٩١م، ليتقرر ذلك المبدأ منذ ١٧٩٧م وتَحُول حروب الثورة والإمبراطورية دون الشروع في تنفيذه حتى سنة ١٨١٧م.[١٠]

وكان استيلاء البرجوازية التجارية على الحكم في فرنسا مع ثورة ١٨٣٠م، وسعيها للأخذ بنصيب من تركة الرجل المريض، وأطماع لوبي مارسيليا التجارية والسياسية في الواجهة الأخرى للمتوسط، والبحث عن سند خارجي لإنقاذ عرش آل بوربون المتداعي وحكومة بولينياك (Polignac) المهزوزة داخلياً وراء احتلال الجزائر في ١٨٣٠م.[١١]

كما أن فشل سياسات حكومة لوي فيليب (Louis Philippe) (١٨٣٠-١٨٤٨م) المتوسطية والمصرية قد أعطى دفعاً قوياً لاحتلال الجزائر والتغلغل في حوض نهر السنغال، والعمل على الربط بين المستعمرتين. ويكفي في هذا المقام أن ننظر إلى حملات بيجو (Bugeaud)[١٢] العنيفة التي انتهت باستسلام الأمير عبد القادر في ١٨٤٧م، وجهود الوالي فيديرب (Faidherbe) للتغلغل في التخوم الصحراوية،[١٣] وعمل الوالي بُوّي وِيُوميزْ (Bouët-Willaumez)[١٤] على اكتشاف أعالي النهر وإيجاد روابط صحراوية بين الجزائر

---

(10). W.B. Cohen. 1981. Français et Africains. Les Noires dans le regard des Blancs 1530-1880, traduit de l'angalis par Camille Garnier, coll. Bibliothèque des Histoires, éd. Gallimard, Paris, p. 234.

(١١). بروديل، فرناند. حركية الرأسمالية. ١٩٧٧. ترجمة، محمد البكري ومحمد بولعيش، الدار البيضاء: منشورات عيون، ص. ٥٠.

(١٢). **توماس روبير بيجو (١٧٨٤-١٨٤٩)**: تألق بصفته ضابطاً شاباً خلال حروب الإمبراطورية، وانضم إلى آل بربون في ١٨١٤، ثم التحق بنابليون الأول، وانتخب نائباً في البرلمان سنة ١٨٣١. وبعد أن أثبت كفاءاته العسكرية على أكثر من صعيد، أرسل إلى الجزائر سنة ١٨٣٦، حيث وقع في السنة التالية اتفاقية **التافنة** مع الأمير عبد القادر التي سرعان ما نكثتها الحكومة الفرنسية. وعين والياً عاماً على الجزائر ما بين ١٨٤٠ و١٨٤٧، حيث نظم احتلالها وعمل على تكوين وحدات عسكرية خفيفة وسهلة الحركة، ودعا، وهو ما يزال في فرنسا، إلى شنّ حرب لا هوادة فيها على المقاومة. ومارس بيجو سياسة إبادة وتدمير لا تبقى ولا تذر، فبالغ في أعمال السلب والنهب والتقتيل بلا رحمة للقضاء على الأمير عبد القادر وأنصاره.

(١٣). أسس قلعة بوسعادة في ١٨٥٠، والأغواط في ١٨٥١، وتُكورت في ١٨٥٤م.

(١٤). **بوى ويوميز (١٨٠٨-١٨٧١)**: ضابط بحري شهير عند المهتمين بتاريخ التغلغل الاستعماري الفرنسي في غرب إفريقيا. اشترك في عدد من الحملات العسكرية في الأبيض المتوسط والهند، وفي معركة نافارين، وحملة الجزائر (١٨٣٠)، وحصار أنفير (١٨٣٢). وعمل بمنطقة غرب إفريقيا منذ ١٨٣٦ قائدَ سفينة حربية جابت مجمل الساحل الأطلسي والحوض الأسفل لنهر السنغال، ورابط على ساحل مدينة الصويرة المغربية ووضع مخطّطاً لها ولتحصيناتها في ١٨٤٠ واشترك في الاستيلاء عليها سنة ١٨٤٤. وشغل منصب قائد المحطة البحرية الفرنسية في غرب إفريقيا من ١٨٤١ إلى ١٨٤٢، قبل أن يعين والياً للسنغال وتوابعه في ما بين سبتمبر ١٨٤٢ ومايو ١٨٤٤. وقد صاغ خلال تلك الولاية سياسة استعمارية جديدة جعلت منه رائد التغلغل الاستعماري الفرنسي المعاصر في إفريقيا الغربية. وأسهم في عصرنة الأسطول البحري في عهد

والسنغال انطلاقاً من خطته الرامية إلى مهاجمة إفريقيا من الغرب ومن الشمال، ومن الأجنحة والرأس في آن واحد.

وترك إفلاس سياسة الإمبراطورية الثانية (١٨٥١-١٨٧٠م) في أوروبا وانشغالها بالحرب ضد ألمانيا ومخلفاتها، أثره البالغ على سياسة فرنسا التوسعية في إفريقيا. وكانت الحاجة إلى تناسي هزيمة سيدان (Sedan)[١٥]، وتعويض خسارة الألزاس واللُّورين، وإغراءات بسمارك (Besmark) (١٨١٥-١٨٩٨م) لها بالتوسع في إفريقيا، أهم دواعي انطلاقة التوسع الفرنسي الحثيث في ظل الجمهورية الثالثة (١٨٧٠-١٩٤٠م)، ولا سيما منذ عهد جيل فيري (Jules Ferry) (١٨٧٩-١٨٨٥م) الذي ظهر مخططه الاستعماري لأول مرة ضمن مقدمته لكتاب "**قضايا تونس**" (Affaires de Tunisie) الصادر في يناير ١٨٨٢م.

ووجدت السياسة التوسعية الفرنسية تجلياتها الواضحة في الحوض الأسفل لنهر السنغال منذ نهاية الحروب النابليونية واستعادة السنغال من الإنكليز سنة ١٨١٧م، في وقت أحكم الترارزة[١٦] قبضتهم على مصب النهر، وتشعبت علاقاتهم مع «والو»[١٧]، وانضاف لأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التقليدية بعدٌ استراتيجي أملته طبيعة الحضور الفرنسي في المنطقة وتأرجح علاقاتهم مع الترارزة.

وكان مشروع إنشاء مستعمرة زراعية في «والو»، ومناهضة التبادل مع الإنكليز في بورتانديك،[١٨] والتدخل في شؤون الإمارات الداخلية وفي علاقاتها مع ممالك الضفة اليسرى، وإقصاء البيضان من تلك الضفة، أهم تجليات السياسة الاستعمارية الفرنسية في حوض نهر السنغال، ومصدر الصراعات والحروب المتكررة مع جيرانهم الشماليين وخاصة الترارزة الذين اكتووا أكثر من غيرهم بنيرانها وحملوا لواء التصدي لتلك السياسة منذ إرهاصاتها الأولى المتمثلة في مشروع الاستعمار الزراعي (١٨١٨-١٨٣١م)، وحرب زواج الأمير محمد الحبيب من اجَّمبت وصية عرش «والو» (١٨٣٣- ١٨٣٥م).

الإمبراطورية الثانية، وكان مستشاراً نافذاً لثلاثة من وزراء البحرية والمستعمرات بدءاً بديكوس (Ducos) وانتهاء بشاسلوب (Chasseloup-Laubat). وأصبح بُوِّي عضواً في مجلس الشيوخ ابتداء من سنة ١٨٦٦م، وعاد إلى الخدمة العسكرية سنة ١٨٧٠م ليقضي نحبه في ١٨٧١م بفعل الهزيمة.

[١٥]. نسبة للمدينة الفرنسية الواقعة في إقليم اللاردن (Ardennes) المتاخم لبلجيكا التي تجابه فيها البروسيون والفرنسيون في ١٨٧٠/٩/٣، وقتل وجرح من هؤلاء ١٥,٠٠٠، وأسر منهم ٩١,٠٠٠ - من ضمنهم نابليون الثالث - ونفي ٣,٠٠٠ إلى بلجيكا. هكذا وردت في المصدر وهذه الإحالة المصدرية. راجع: Dominique et Michèle Flémy, *Encyclopédie QUID tout pour tous 1989*, éd. Robert Laffont, Paris, 1988, p. 637.

[١٦]. تقع ولاية **الترارزة** في الجنوب الغربي لموريتانيا في المنطقة المعروفة تاريخيا بالكبلة. يحدها من الشمال ولاية إنشيري ومن الشمال الشرقي ولاية أدرار ومن الشرق ولاية لبراكنة ومن الجنوب نهر السنغال ومن الغرب المحيط الأطلسي. راجع: ولد السعد، محمد المختار. ٢٠٠٢. إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من ١٧٠٣. ١٨٦٠م. ولد السعد، محمد المختار. ط١، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

[١٧]. تقع على الضفة اليسرى من نهر السنغال.

[١٨]. مرسى ومحطة تجارية للتبادل أنشأها الهولنديون في الربع الأخير من القرن 17 م، وذلك بعد طردهم من ميناء آركين على يد الفرنسيين، وأطلقوا عليه ميناء هد، وظلوا يتبادلون فيه إلى الربع الأول من القرن 18 م، وقد ارتبط الميناء أكثر بالوجود الإنكليزي على الشواطئ. راجع: المجتمع البيضاني، م.س، هامش ص (٥٥).

وكان على محمد الحبيب (١٨٢٩-١٨٦٠) بالذات أن يتصدى لأكثر مظاهر تلك السياسة عتواً وجبروتاً، وأمضى أسلحتها وأشدها فتكاً وتدميراً خلال حربه مع ممثلها العنيف فيديرب (Faidherbe) ما بين ١٨٥٥ و١٨٥٨م.

وحكمت مواقف الأرستقراطيتين الدينية والزمنية في الترارزة من تلك السياسة التوسعية سياقات الزمان والمكان وإكراهات الواقع الاقتصادي والاجتماعي المعيش.

. فيديرب (Faidherbe) ومشروعه الاستعماري:

لا يمكن الحديث عن تاريخ السنغال الاستعماري، بدون إبراز الشخصيات الاستعمارية الفاعلة فيه. ومن بين تلك الشخصيات التي طبعت تاريخ السنغال بطابعها الخاص نذكر"لويس سيزار فيديرب "، حيث لم يتردد البعض في وصفه بأنه مهندس السياسة الاستعمارية في إفريقيا الغربية، وأول من أرسى أطماع فرنسا في المنطقة، وبلور أهدافها الاستعمارية.[١٩] فماذا عن هذه الشخصية؟

كانت ولادته بمدينة ليل (Lille) الفرنسية في ٣ يناير ١٨١٨م، في أسرة مدنية متواضعة الحال، تابع تعليمه بمدرسة البوليتكنيك في ١٨٣٧- ١٨٣٨م التي تخرج منها سنة ١٨٤٠م، ليلتحق بالمدرسة العسكرية بميتز. ثم عمل ضابطًا مهندسًا. وقد كان أول احتكاكه بالعالم الإسلامي حين عُين بالجزائر، والتي عمل بها لعدة سنوات.

وفي سنة ١٨٥٢م أُرسِل إلى السنغال، حيث عمل تحت إمرة الوالي بروتي، لكن نقمة الدور التجارية على هذا الأخير، عجلت بإقالته، وأعطت الفرصة لفيديرب ليتقلد منصب والي السنغال، الذي شغله من سنة ١٨٥٤ إلى ١٨٦١م، ومن سنة ١٨٦٣م إلى ١٨٦٥م. وبعد مغادرته للسنغال تقلد عدّة مناصب.[٢٠]

* برنامج فيديرب الاستعماري:

إنَّ تعيين فيديرب على رأس الإدارة في سانت لويس جاء في وقت دقيق، وحساس بالنسبة لفرنسا؛ فمن جهة شهدت هذه الفترة تركيز النظام الإمبراطوري في شخص نابليون الثالث، ومن جهة ثانية، عزمت القيادة الفرنسية الجديدة على تنفيذ المخطط الاستعماري الذي تقرر عام ١٨٥٠م.

وهكذا أوكلت هذه المهمة . في أول الأمر . إلى الوالي بروتي، وأمام تعذره في تنفيذها، أسندت إلى فيديرب، الذي لخصها الوزير في رسالته بتاريخ ٨ دجنبر ١٨٥٤م:

- ❖ إنشاء مراكز على الضفة اليسرى لتكون نقط ارتكاز لأسلوب التبادل الجديد.
- ❖ القضاء على محطات التبادل، وإبدال أماكن بها يختارها التجار سواء على الضفة اليمنى، أو اليسرى.

---

[2] Faidherbe,(L). 1889. Le Sénégal (La france dans L'afrique occidentale). Paris : Libraire Hachette, p. 7.

([20]). Le Sénégal La france dans L'afrique occidentale, op. cit. p. 220.

- وضع مملكة والو تحت الحماية الفرنسية، والقضاء على هيمنة الشناقطة [الشناقظة بالظاء؟ أم الشناقطة بالطاء؟].
- إقرار حرية الملاحة في نهر السنغال، وإلغاء الإتاوات.(٢١)
- إلزام سكان الضفتين (الزنوج، والبيضان) بالاعتراف بسيادة حكومة السنغال .
- الاهتمام بالسنغال الأعلى، ومحاولة خلق نقط ارتكاز لغزو السوق السوداني.(٢٢)

جاء هذا المشروع كمحاولة تطبيقية لرؤية جديدة؛ تهدف إلى المحافظة على الوضعية المتفوقة لفرنسا التي فقدت كثيراً من وزنها بسبب فشل مشاريعها الاستعمارية في السنغال. وفي المقابل، قد كان فيديرب واثقاً منذ البداية أن تلك السياسة الجديدة ستضعه في مواجهة مفتوحة مع سكان الضفة اليمنى ولا سيما الترارزة، إذ يقول في رسالته السابقة: "... **إن البيضان لا يريدون تغيير أي شيء مما كان قائماً، وبعبارة أخرى فهم يريدون أن نُسدد لهم مبلغاً معيناً عن كل سفينة حسب حمولتها سواء أكان فيها علك أم لا . وقد ظل محمد الحبيب يؤكد على الدوام، ولحد الساعة، أن أي شيء لن يتغير بالنسبة للضرائب العرفية و لمحطات التبادل ما دام حياً** ".(٢٣)

وبعد أن استعرض الباحث أهم ما جاء في مشروع فيديرب الاستعماري، يمكن للقارئ أن يلاحظ أن القوة هي العنصر الأساسي فيه، وخير دليل على ذلك ما جاء في قول فيديرب: "**أعتقد أنه ليس أمامنا سوى طريق واحد هو أن نعمل ما نريد عمله، ولنحارب من يعارضنا** ".(٢٤)

أما بخصوص الوضعية السياسية في السنغال وقت مجيء فيديرب فيمكن تلخيصها على النحو التالي:

- إمارة والو في الضفة اليسرى لنهر السنغال؛ وقد امتدت من مصب النهر حتى "داجنا"، فكانت تحت سيطرة قبائل الترارزة الموريتانية .
- مملكة كايور التي امتدت من سانت لويس حتى جوريه (Gorèe).
- مملكة السرير في جنوب كايور، وفي منطقة بئول .
- في أقصى الجنوب ممالك سين، وسالوم .

فوتا السنغالية التي امتدت من "داجنا " حتى (Nguèrer) ، وانقسمت فوتا السنغالية إلى عدة مناطق أهمها ديمار (Dimar)، و تورو (Toro).

---

(٢١) . نلفت الانتباه أنَّ هذه الإتاوات أو الضرائب التي كانت تقدمها الإدارة الفرنسية، كانت تمثل بالنسبة للزعامات المحلية رمزا لسيادتها.

(٢٢) . السفيوي، عبد النبي. ١٩٩٥. "الاستعمار الفرنسي في السنغال ١٨٥٤- ١٨٧٦". السفيوي، عبد النبي. رسالة ماجستير، المغرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس ـ أكدال، ص. ١٣٤.

(23) - Barry, (B). La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, op. cit, p. 45.

(24) - Le Sénégal, p. (37).

ردود الفعل تجاه الاستعمار الفرنسي: حركة الحاج عمر نموذجاً

في هذا الفصل، يحاول الباحث استنطاق المادة المصدرية المتوفرة لمعرفة ردود الفعل الوطنية تجاه الوجود الفرنسي في السنغال، وسيتم التركيز على أهم حركة جهادية، ألا وهي "الحركة العمرية"، التي قادها الحاج عمر الفوتي. والتي كانت بالأساس حركة إصلاحية دينية،[٢٥] ثم تحولت إلى حركة سياسية عسكرية، ألحقت بالفرنسيين خسائر فادحة، وأجبرت الساسة وأصحاب القرار الفرنسي على تغيير الاستراتيجية العسكرية في كثير من الأحايين.

أولاً. التعريف بالحاج عمر الفوتي:

ولد الحاج عمر الفوتي خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر بنواحي بودور (Podor)[٢٦]، في أسرة أرستقراطية مسلمة بفوتا تور، لقنته تكويناً إسلامياً متيناً منذ نعومة أظافره، أخذ الورد التيجاني من يد الشيخ مولود فال ببلاد التبرارزة، وأكده له الشيخ عبد الكريم الناقل من فوتا جالون،[٢٧] قبل أن يسافر ويقيم طويلا في الحجاز. وهناك التقى بمحمد الغالي بوطالب، تلميذ سيدي أحمد التيجاني المباشر، وخليفة الزاوية بالحجاز. ومحمد الغالي هذا، هو الذي منح الحاج عمر لقب (خليفة التيجانية على أهالي بلاد السودان). وهو اللقب الذي أهله لإعطاء الأوراد بدوره وتعيين المقدمين؛ وبذلك سيحتل الحاج عمر مرتبة مماثلة لتلك التي كان يحتلها الشيخ محمد الحافظ العلوي[٢٨] في بلاد شنقيط، مما سمح له بأن يجعل من نفسه أهم شيخ للتيجانية بالمنطقة، علاوة على أن دراسته بالمشرق ومساجلته لعدد من العلماء بالحجاز ومصر، ستساعده على إنجاز إسهامٍ ذي أهمية كبيرة في التراث النظري والتطبيقي للطريقة، بفضل مؤلف "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم" على وجه الخصوص، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى.[٢٩]

ثانياً. الحاج عمر في مواجهة الوثنية والهيمنة الفرنسية:

قبل بداية الحركة الإصلاحية للحاج عمر الفوتي، كانت البلاد تعيش حالة من التصدع السياسي والظلم الاجتماعي. الشيء الذي وفر تربة خصبة لترعرع ونمو الحركة العمرية خاصة بين الفئات الدنيا، التي كانت تتطلع إلى منقذ يصلح حالها ويعيد للإسلام والمسلمين مكانتهما.

---

[٢٥]. كانت حركات الجهاد التي اندلعت وصادفت مجيء الاستعمار الأوربي لمنطقة الغرب الإفريقي في القرن التاسع عشر، بمثابة الميلاد الحقيقي للحماس الديني والوعي السياسي والتضامن بين شعوب تلك المنطقة المسلمة. أظهرت المجتمعات الإسلامية استعدادا كاملاً للانقياد لتوجهات دينية بزعامة رواد تلك الحركات تحت راية الجهاد بغية إصلاح أحوالهم الاجتماعية والدينية، ومقاومة السيطرة الاستعمارية. فأوجدت تلك الحركات روحاً ثورياً ونشاطاً فكرياً في كثير من القطاعات الاجتماعية من هنا وهناك.

[٢٦]. تقع بودور على الحدود السنغالية الموريتانية.

[٢٧]. الفوتي، عمر بن سعيد بن عثمان. ١٩٨٨. رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرجيم. الفوتي، عمر بن سعيد بن عثمان. لبنان: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ج١، ص. ١٩١.

[٢٨]. المصدر نفسه، ص. ١٩٥.

[٢٩]. الأزمي، أحمد. ٢٠٠٩. دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن ١٩م. الأزمي، أحمد. ط١، فاس: دار ما بعد الحداثة، ص. ٥٤.

وبعد رحلة حجية وعلمية دامت زهاء عقدين من الزمن، عاد الحاج عمر إلى فوتاجالون بتجربة إنسانية وروحية غنية، مكّنته من تزعم حركة إصلاحية رائدة، تعتبر امتداداً للحركات الإصلاحية التي ظهرت منذ القرن ١٧م. وعن هذا الجانب، يقول الباحث بوبكر باري: "**إنَّ الحاج عمر هو بلا شك، من تابع حمل مشعل الحركة الإصلاحية التي لم تفتأ، منذ ناصر الدين في القرن ١٧م، تهز الوضع السياسي والاجتماعي و الديني في السنغال**".[٣٠]

واهتم الحاج عمر في بداية أمره بالبحث عن موقع يستقر فيه، ليتخذ منه قاعدة لنشر مبادئ الطريقة التيجانية، وانتهى به المقام في دياجونكو. وبموازاة مع ذلك، حاول استطلاع أحوال البلاد بنفسه من خلال سفريات في بلاد فوتاتور والسرير والولوف، بُغية كسب تأييد الزعامات المحلية لقضيته، ولجس نبض الإدارة الفرنسية.

وفي هذا الجانب، تدخل كذلك زياراته لسانت لويس في بداية عام ١٨٤٧م، التي ما إنْ دخلها حتى وجد مسلموها يتقاطرون عليه، مرحبين به.

ولعل أهم ما أسفرت عنه هذه التحركات الأولية، أنه تمكن من استقطاب عدد لا يستهان به من الأتباع، شكل منهم النواة الأولى لجيشه، وفي نفس السياق، فإنَّ وصوله للشواطئ الأطلسية، مكّنه من الاستخبار عن موانئ الأسلحة وكيفية الحصول عليها.[٣١] وعلى إثر بعض المضايقات من الزعامات المحلية، التي رأت في دعاية الحاج عمر مساً بمصالحها الاقتصادية والسياسية، اضطر الإمام إلى الهجرة بأصحابه ومريديه إلى دنجراي عام ١٨٤٩م، ومن هنالك بدأ بجهاده. وبذلك انتقلت حركته من مرحلة الدعوة السلمية القائمة على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مرحلة المواجهة العسكرية.[٣٢]

وقد استطاع الحاج عمر في أول مواجهة أن يسيطر على مملكة كوفود (Gufude) ، حيث مناجم ذهب بوري. وخلَّف هذا الانتصار صدى واسعاً لدى الأهالي والإدارة الاستعمارية على السواء.

وبعد مرحلة الاستعدادات، توجه الإمام في منتصف عام ١٨٥٤م نحو منطقة البامبوك الغنية بمناجم الذهب، يريد اخضاعها لسلطته. وكانت عيون الوالي بروتي ـ وقتئذ ـ تتابع كل تحركاته وترصدها.

وفي محاولة لاستبعاد أي تدخل للإدارة الفرنسية، يمكن أن يحول بينه وبين هدفه، راسل الحاج عمر الوالي بروتي، واقترح عليه السماح للفرنسيين بالاتجار في المناطق الخاضعة له مقابل تمكينه من العتاد والذخيرة. وكان الحاج عمر يعلم أنَّ طلبه سيقابل بالرفض، أما إذ تقدم به، فلأنه ـ فيما نعتقد ـ كان يرغب في ربح الوقت لاستكمال استعداداته، وكذلك للتمويه على الإدارة الاستعمارية، بقصد الحول بينها وبين الزعامات المحلية المناوئة له.

---

[30] - La Sénégambie du XVe au XIXe siégle , op. cit, p. 36.

[٣١] ـ الفوتي، عمر بن سعيد بن عثمان. ١٩٧٩. تذكرة المسترشدين، لعامر صمب. منشور ضمن الأدب السنغالي العربي، ج١، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. ٦٧.

[٣٢] ـ الشكري، أحمد. "جهاد الحاج عمر الفوتي في أعالي نهر السنغال، م.س، ص. ٥٨.

في إطار هذه المعطيات التي تدل على حنكته السياسية، زحف الحاج عمر بجيشه، واستطاع مد نفوذه على عدد من الإمارات الواقعة في إقليم البامبوك، مثل صولي وجلفرا وجوكيبا وغيرها. ثم أخذ يتهيأ لغزو فارابنا أقوى إمارة بالإقليم، وفي نفس الوقت سعى لاحتواء الموقف دبلوماسيا، وتمكن في نهاية المطاف، من دخول فارابنا سلميا بعد أن استمال زعيمها وكبار أعيانها.[٣٣]

بعد هذا النجاح العسكري، عاد الحاج عمر ليلعب مرة أخرى بالورقة الدبلوماسية (السلمية) تجاه عدد من الإمارات، خاصة منها الإسلامية، فجاءت طائعة ومبايعة.[٣٤] في حين استخدم القوة العسكرية ضد الزعامات الوثنية التي رفضت دعوته. وبذلك، أصبح الحاج عمر يبسط نفوذه على جل مناطق أعالي نهر السنغال.

وفي بداية عام ١٨٥٥م، أخذ الحاج عمر في التهيؤ لحروبه المقبلة مع إمارة كارتا الوثنية.[٣٥] ففتحها، وألحقها بدولته الإسلامية في ١١ أبريل ١٨٥٥م. وبموازاة مع ذلك، كان يعمل طيلة عشر الخمسين من القرن ١٩م على محاصرة التجارة الفرنسية في مناطق نفوذه، ونفس الأسلوب التجأت إليه الإدارة الفرنسية؛ حيث كانت تمنع عليه التزود بالسلاح من الموانئ الأطلسية. وإذا كانت سياسة الإمام قد ضربت في العمق المصالح الفرنسية من خلال حصاره التجاري، فإنه في المقابل، لم يتضرر كثيراً من محاولات الإدارة الفرنسية الرامية إلى إبعاده عن الموانئ الأطلسية، حتى لا يتمكن من السلاح. وهذا ما يفسر لنا نجاحاته العسكرية المتلاحقة.

وبينما الحاج عمر يرسخ قواعد دولته الإسلامية أواخر عام ١٨٥٤م، كانت الإدارة الفرنسية تراقب بحذر شديد تطورات الموقف، وتبين لها أنَّ الوالي بروتي لم يكن في مستوى الأحداث؛ لذلك ارتأت باريس التعويض عنه بالوالي فيديرب.[٣٦]

وجاء تعيين هذا الأخير على رأس المستعمرة الفرنسية بالسنغال، ليترجم رغبة فرنسا في رد الاعتبار لمكانتها بالمنطقة. وهذا ما حاوله فيديرب بانتهاج سياسة العصا الغليظة.[٣٧]

وبالفعل فقد دشن فيديرب عهده باحتلال مملكة والو، وذلك بعد صراع مرير خاصة مع الترارزة. واستعمل الوالي الجديد كل الوسائل المتاحة أمامه في سبيل تحقيق غايته، بما في ذلك اتباع سياسة الأرض المحروقة، التي كان القائد بيجو قد استعملها في الجزائر قبل ذلك.

وبما أنَّ الحاج عمر قد أصبح سيد ممالك أعالي النهر، وهي المنطقة التي طالما راهن عليها الفرنسيون اقتصادياً وسياسياً، فقد أصبحت المواجهة بين الشيخ التيجاني والوالي فيديرب أمراً وارداً.

---

[٣٣] ."جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. ٥٩.

[٣٤] . نذكر منها على وجه الخصوص: البوندو والخاسو والكوي والكاميرا.

[٣٥] . كانت كارتا إمارة وثنية عاصمتها نيورو. وقبل الفتح العمري كانت تحكمها أسرة وثنية تدعى ماصاصي.

[36] Mage, (E).1980. 1980. Voyage au Soudan occidental 1863-1866 . Paris: Karthala, p. 127.

[٣٧] ."جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص (٦١).

وأدرك الحاج عمر أنَّ إمكانياته سواء على المستوى العسكري أو على المستوى التنظيمي لدولته الفتية، لا يمكنها الصمود كثيراً أمام الآلة العسكرية الفرنسية، لذلك اتجه نحو الشرق صوب مملكة سيكو.[٣٨]

وبينما الشيخ التيجاني منشغل بحروبه في سيكو، استغل الفرنسيون الوضع وتمكنوا من السيطرة على مركز باكل ومملكة الكوي. وفي نفس الوقت، حاول فيديرب استمالة بعض السكان المحليين، وعقد معهم تحالفات واتفاقيات ثنائية، مثلما حدث مع صامبلا زعيم الخاسو، وبوبكر سعدة زعيم مملكة البوندو.

ولم يقتصر الأمر على هذه المناورات السياسية، بل تجاوزها إلى اعتماد سياسة ترهيب وتقتيل أنصار الحاج عمر ممن يقعون في أيدي قوات فيديرب أو قوات الزعماء المتحالفين معه. ولتطويق الحركة الجهادية ثقافياً، جنّدت الإدارة الفرنسية بعض الفقهاء الموالين لها للطعن في دعوات الحاج عمر الفوتي، واستخدمت لهذه الغاية غير واحد من الفقهاء، نخص بالذكر منهم الفقيه أبو المقداد.[٣٩]

وإلى نهاية عام ١٨٦٠م، دارت بين الرجلين عدة معارك، وتقلبت خلال مدة صراعهما سياسة الزعماء المحليين سواء في اتجاه الإدارة الفرنسية أو في اتجاه الحاج عمر وحركته الجهادية.

وبالقدر الذي كان الحاج عمر يجتهد في فك الارتباط ما بين الزعامات المحلية والسلطة الاستعمارية، بنفس القدر أو أكثر كان فيديرب يعمل على خنق الحركة العمرية سياسيا واقتصاديا وثقافيا. وقد نجح في مسعاه، الشيء الذي جعل الإمام يتجه نحو الشرق بعيدا عن مرمى مدافع الفرنسيين.[٤٠]

على أنَّ هذا التوجه لا يعني رغبة في السلم ومهادنة الاستعمار كما ذهب إلى ذلك الباحث إيف سان مارتان في مقاله،[٤١] وإنما هو تكتيك سياسي واستراتيجي مرحلي؛ لجأ إليه حتى الوالي فيديرب على الرغم من تفوق آلته العسكرية، حيث وجدناه عام ١٨٦٠م يسعى سعيا حثيثا لتوقيع اتفاقية سلام مع الحاج عمر.

ويتضح من خلال الوثائق المتوفرة، أنَّ مجال المثلث المكون من نهري السنغال والفاليمي، حيث مناجم الذهب (بوري، غالم، بامبوك) شكل أحد نقاط الارتكاز لسياسة فيديرب التوسعية. ذلك أنَّ إخضاع هذا المجال يعني التخلص من ضغط الخزينة الاستعمارية، الرافضة لأي تمويلات إضافية للحملات الاستعمارية في المنطقة، كما يعني إمكانية غزو السوق السنغالي تجارياً، والتحكم بالطرق المؤدية إلى غامبيا

---

[٣٨]. ما من شك أنَّ محاولات الوالي فيديرب في عرقلة عمليات الحاج عمر اتجاه الشواطئ الأطلسية للحصول على الأسلحة، أسهمت هي الأخرى في توجهه نحو الشرق.

[٣٩]. كان قاضيا بسانت لويس وعمل مع الإدارة الفرنسية كمترجم منذ عام ١٨٥٥م، واستمر في تقديم خدماته للاستعمار الفرنسي وذلك إلى حين وفاته عام ١٨٨٠م.

[٤٠]. "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. ٦٣.

[41] - Yves- J. Saint Martin, 1968 , La volonté de paix d'EL Hadj Omar et d'Ahmadou dans – 30 leurs relations aves la France,B. IFAN, T 30, No 3, pp (785- 802).

وفوتاجالون. وجميع هذه المعطيات، تسمح بتطويق السنغال الأعلى، وبالتالي منع أي انتشار مجالي للدولة الإسلامية التي أنشأها الحاج عمر.[٤٢]

وبعد مناورات سياسية وحملات عسكرية، تمكن الوالي الفرنسي من إخضاع المنطقة المعينة، ثم انتقل في نهاية العقد السادس من القرن ١٩م إلى مملكة كايور ومنطقة كازامنس، يريد إخضاعها وإلحاقها بالمستعمرة، مستغلا فترة الهدنة مع قوات الحاج عمر. وكان هذا الأخير قد خرج من السنغال منذ سنة ١٨٥٩م، واتجه بحركته إلى ماسينا؛ حيث أقام دولة إسلامية هناك.[٤٣]

وما كادت سنة ١٨٦٢م تنتصف حتى بدأت الأخبار تتوارد على منطقة أعالي نهر السنغال، تزف نجاح أمر الحاج عمر في ماسينا، كما تؤكد على رغبته في العودة للسنغال؛ لإخراج الفرنسيين من البلاد. وكان لهذه الأخبار وقع كبير على الأهالي والزعماء، الشيء الذي حفّزهم وجعلهم ينتفضون ويثورون، كما هو الشأن بالنسبة لإمام فوتا الوسطى ألفا أحمدو وغيره.[٤٤]

وأدركت فرنسا وقتئذ أنَّ أكبر خطر يهدد وجودها ويحول دون تحقيق أحلامها التوسعية، إنما مصدره الدعوة العمرية الجهادية. لذلك نزلت بكل ثقلها العسكري ضد فوتاتور عام ١٨٦٣م، غير أنها لم تحقق نصرا حاسماً. لكنها في المقابل، أضعفت قوات الحاج عمر، وجعلته عاجزا عن الوقوف في وجه زعماء ماسينا الذين ثاروا ضده وأطاحوا به في فبراير ١٨٦٤م.[٤٥]

خلاصة القول، إنَّ الحركة الاصلاحية ــ الجهادية العمرية، شكلت حلقة من حلقات الإصلاح والجهاد، التي برزت كظاهرة متميزة منذ نهاية القرن ١٧م في منطقة السنغال، وتنامت خلال القرنين ١٨ و١٩م. وقد جاءت كرد فعل على التدخل الأوروبي من خلال التجارة الأطلسية، وما رافق ذلك من انعكاسات سلبية على المنطقة ككل.

وما من شك أنَّ الحركة التي قادها الحاج عمر، كان لها دور رائد في توحيد منطقة السنغال سياسياً، كما أنها استطاعت . على الرغم من ضعف إمكانياتها . من تعميق تجربة الإسلام، هذا عن دورها البالغ الأهمية في تهديد المصالح الفرنسية بالمنطقة.

---

[٤٢] . "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. ٦٣.
[٤٣] . نفس المرجع، ص (٦٥).
[٤٤] . السفيوي، عبد النبي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال"، ص. ٢٩٦.
[٤٥] . "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، ص. ٦٥.

الخاتمة

وأخيراً وبعد طول نجعة، وصل الباحث إلى ختام هذا العمل المُكرس للمقاومة الإسلامية للاستعمار الفرنسي في السنغال (١٨٥٤. ١٨٦٥م). وقد توصل من خلال عشرته لهذا الموضوع، إلى عدد من النتائج والملاحظات المهمة نجملها في النقاط التالية:

- كان الوجود الأوروبي على الشواطئ السنغالية قبل القرن ١٩م، مقتصراً على الجانب الاقتصادي (بعثات تجارية، الاتجار بالذهب والعاج والرقيق، إنشاء محطات تجارية)، والثقافي (محاولة نشر المسيحية). وكان همه الأكبر هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، وكما لم يصطحب هذا الحضور . بطبيعة الحال . أي وجود عسكري مكثف على الأرض السنغالية.
- لم يشكل هذا الوجود أي تهديد ثقافي على الإسلام خلال هذه الحقبة، على عكس الفترة اللاحقة (القرنين ١٩ و٢٠م)؛ وذلك عندما تدخلت الدول الأوروبية بشكل مباشر في معظم المناطق الإفريقية واحتلتها عسكرياً، بما فيها مجال دراستنا.
- كان من أهم أسباب ودواعي السياسة التوسعية الفرنسية بالسنغال خلال القرن ١٩م، خسارة مستعمراتها الزراعية في العالم الجديد، وإفلاس صناعاتها في الهند، إضافة إلى سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية في فرنسا.
- يتضح أيضاً، أنَّ التوسع الاستعماري الفرنسي في السنغال، لم يكن وليد ظرفية القرن ١٩م؛ ولتحقيق هذا الهدف استعملت فرنسا كل الوسائل المتاحة شرعية كانت أو غير شرعية.
- بدأ مسلسل تثبيت السيادة الفرنسية على الممالك السنغالية، مع تعيين فيديرب عام ١٨٥٤م واليا على مستعمرة السنغال؛ والذي استطاع تحقيق حلم فرنسا في احتلال السنغال، ليكون بوابة الدخول إلى إفريقيا الغربية ككل، وذلك بعد استعمال فيديرب استراتيجية القوة العسكرية.
- كما سعى الوالي الجديد إلى ربط المستعمرات الفرنسية في الجزائر مع مستعمرة السنغال في غرب إفريقيا.
- هذا وقد وضع فيديرب سياسة محددة للتعامل مع القوى الوطنية المختلفة تلخصت في سياسة السلام أو الحرب على القوى الوطنية المختلفة للتعاون معه والاستسلام للنفوذ الفرنسي، فإن لم ترضخ له فليس أمامها سوى الحرب.
- كما تبين . أيضا . أنَّ الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الوجود الفرنسي في السنغال، كان يكمن في الحركات الجهادية الإسلامية، وخاصة حركة الحاج عمر، التي تجاوز نفوذها الحدود السياسية للسنغال. ويمكن القول، إنَّ هذه الحركة كانت بمثابة رد فعل ضد تأزم الأوضاع السياسية والاجتماعية بالسنغال؛ نتيجة الصراع حول السلطة والنفوذ. لذلك وضع الحاج عمر نصب عينيه تحقيق ثلاثة أهداف أساسية:
- نشر وتعميق الإسلام لدى الأهالي.
- توحيد شتات القبائل بهدف خلق وحدة سياسية وإسلامية في المنطقة.
- مقاومة الاستعمار الفرنسي.

- وما من شك، أنَّ هذه الأهداف الثلاثة، والتي ناضل وجاهد من أجلها، كانت متداخلة ومتكاملة ويصعب الفصل بينها؛ كما إنها كانت أكبر من إمكانياته وطموحاته.
- استطاع الحاج عمر أن يسيطر على مجمل ممالك أعالي نهر السنغال، بشقيها الوثني والمسلم، كما تمكن من تهديد المصالح الفرنسية في السنغال، وكبد العدو خسائر فوق طاقاته. لكن خوف الزعامات المحلية على مصالحها السياسية والاقتصادية جعلها تقف في وجه هذا المجاهد، وترتمي في أحضان الإدارة الاستعمارية للاستعانة بها ضده.
- وأمام هذا الوضع، ارتأى الحاج عمر جمع أكبر عدد ممكن من الأتباع ليكونوا دعامته الأساسية في عملياته الجهادية في الشرق. وهذا لا يعني أنَّ الحاج عمر قد تقاعس عن الهدف الذي رسمه منذ البداية لجهاده، وهو إخراج الفرنسيين من أرض الإسلام. بل خاضت جيوشه معارك مع القوات الفرنسية، تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، فإنه ترك فيها صدى واسعا، ظل هاجسا بالنسبة للفرنسيين، وجعلهم يحسبون للحاج عمر ألف حساب، ويغيرون استراتيجية عملهم بمجرد تداول أخبار رجوعه إلى السنغال.
- إنَّ رحيل الحاج عمر عن بلاد السنغال، لم يكن نهاية الجهاد في المنطقة، بل ظهرت شخصيات إسلامية أخرى تسعى إلى الجهاد من تغيير الواقع. وقد كان جهادها يسير على نفس هدى حركة الحاج عمر، وأخص بالذكر مابادياخو، والشيخ أحمدو وغيرهما. فهل سيتمكن هؤلاء المجاهدون من تحقيق ما لم يستطع الحاج عمر تحقيقه، وهو دحر المستعمر الفرنسي؟ أم سيكون مصيرهم الفشل؟ تلك إشكاليات نتمنى أنْ تُتاح لنا محاولة الإجابة عنها في دراسة قادمة إن شاء الله.

المراجع

الأزمي، أحمد. ٢٠٠٩. دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن ١٩م. الطبعة الأولى، دار ما بعد الحداثة . فاس.

بروديل، فرناند. ترجمة محمد، البكري ومحمد، بولعيش. ١٩٧٧م. حركية الرأسمالية. منشورات عيون . الدار البيضاء.

بن محمذن، محمدو. ٢٠٠١. المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية). الطبعة الأولى، منشورات معهد الدارسات الإفريقية . الرباط.

السعدي، عبد الرحمن. ترجمة أوكتاف، هوداس بمشاركة تلميذه السيد، بنوة. ١٩٨١م. تاريخ السودان. ميزونوف . باريس.

السفيوي، عبد النبي. ١٩٩٥. "الاستعمار الفرنسي في السنغال ١٨٥٤- ١٨٧٦". رسالة ماجستير. كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة محمد الخامس.

الشكري، أحمد. ٢٠٠٢. جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال. ضمن أعمال الندوة الدولية المنعقدة في داكار. السنغال (١٤. ١٩ دجنبر ١٩٩٨)، بمناسبة مرور مائتي سنة على ميلاد الحاج عمر الفوتي تال، منشورات معهد الدراسات الإفريقية . الرباط، ص ص ٤٥ .٦٥.

الفوتي، عمر بن سعيد بن عثمان. ١٩٧٩. تذكرة المسترشدين، منشور ضمن الأدب السنغالي العربي، لعامر صمب، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر.

الفوتي، عمر بن سعيد بن عثمان. ١٩٨٨. رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم. الجزء الأول، مطبعة مصطفى البابي الحلبي . لبنان.

ولد السعد، محمد المختار. ٢٠٠٢. إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من ١٧٠٣- ١٨٦٠م. الطبعة الأولى، منشورات معهد الدراسات الإفريقية . الرباط.

Barry, B. 1998. La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale. éd. L'Harmattan, Paris.

Ca Da Mosto., A .De. 1895. Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique. publié par M. Charles Schefer, Paris.

Faidherbe, L. 1889. Le Sénégal (La france dans L'afrique occidentale). Libraire Hachette, Paris.

Mage, E. 1980. Voyage au Soudan occidental 1863-1866, Karthala, Paris.

Mauny, R. 1975. Tableau Géographique du l'Ouest Africain au Moyen Age : d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie. Postbus: Swets Publishing Service.



Cohen. W.,B. 1981. Français et Africains. Les Noires dans le regard des Blancs 1530-1880, traduit de l'angalis par Camille Garnier, coll. Bibliothèque des Histoires, éd. Gallimard, Paris.

